قيـام المدّثّـريـن

تأليف

محمد سلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأشهد أن لا إله إلا الله ، أؤمن به ولا أكفره، وأبرأ ممن يكفره، وإن أبى عليّ الناس ذلك، فالملك ملكه، والخلق خلقه، والأمر أمره، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، من والاه نجى، ومن حادّه هلك، أحمده على حلو القضاء ومرّه، وأعوذ به من سخطه وعقابه.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أدخلنا الله به في الإسلام بعد الكفر، وأخرجنا به من عبادة العباد والأحجار إلى عبادة الواحد القهار، وقضى الذي عليه، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، أما بعد:

فهذه كلمات أذكر بها نفسي ومن بلغته من المسلمين بحق الله على كل واحد منا في تبليغ رسالته للعالمين، حاولت أن أهز بها نفوسا، عسى الله أن يكف غلواء هذه الجاهلية الطاغية، والله ولي التوفيق.

محمد سلامي
الجزائر
2 رمضان 1426هـ

وحرّض المؤمنين

إن المسلم ليغار من أناس يتكلفون المشاق التي تنوء بها الجبال في سبيل الدعوة إلى ما يؤمنون به، ظنا منهم أنه دين الله.

كتب بعضهم عن الجماعة المسماة بالدعوة والتبليغ يقول: (**يحزمون أمتعتهم ويتنقلون من مسجد إلى آخر ومن حي إلى آخر، وآثار السفر بادية على وجوههم، يدعون الناس إلى الإسلام بطريقة تحمل الكثير من معاني الصدق، وفي قالب تفاؤلي قلما تلمسه عند غيرهم، يتواجدون في كل بقاع العالم بما فيها تلك الدويلات المنسية في أدغال إفريقيا، وبين ثنايا الجبال الشاهقة في آسيا وأمريكا، يتكيفون مع كل الظروف ويكسرون كل الحواجز، ولا يحول بينهم وبين أهدافهم عائق...كما لا يتطلب عملهم ميزانية خاصة، فجمع الأموال ممنوع في أدبياتهم، وكل عضو منهم يتولى مصاريفه بنفسه، ولا يقبلون الإكرام من غيرهم...ومن أطرف ما حدثنا به محاورونا عن قدماء جماعة التبليغ أن الجماعة التي تكون مسافرة للدعوة كثيرا ما يعمدون إلى عملية تمويه ذكية بملء قدر بالماء وتركه يطبخ، وإذا وجهت لهم دعوة عشاء يعتذرون عن الإجابة بحجة أنهم قد قاموا بتحضير العشاء بأنفسهم!...من بين المقولات التي يحفظها دعاة الدعوة والتبليغ ما قاله مؤسس الجماعة في الهند أن القلم لا يغني عن القدم، ومدلول هذه المقولة هو أن الدعوة بالتأليف والكتابة والنشر لا يمكن أن تحقق ا لأهداف التي يحققها التنقل، ويقول واحد ممن تحدثنا إليهم أن المتلقي لا يمكنه أن يتأثر بالكلام الذي يقال له إذا لم يكن صاحب الكلام قد ضحى من أجل إيصال هذه الرسالة، ففلسفة الدعوة والتبليغ تقوم على مبدأ التضحية، حيث يترك الواحد منهم أولا ده وأهله وأمواله، ويسافر على نفقته الخاصة متحملا عناء السفر والأخطار المحيطة به**).

ويقول غسان كنفاني: (**المرض يشتد علي، وأشعر دائما بالإعياء والتعب، ولكني لا أذهب للفراش، هناك شعور خفي بأن الذين يقعدون الآن لن يقوموا أبدا**).

ورغم مجانبتهم للصواب فإنهم مخلصون لمبادئهم عن حسن نية، فكيف بالمسلم الذي عرف توحيد الله على حقيقته؟ فإنه أحق منهم بالجهاد في سبيله وتجشم الصعاب وبذل نفسه وماله.

قال الله -تبارك وتعالى-: **إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ** [التوبة: 111].

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (**ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**) [رواه الحاكم والترمذي وحسنه].

يقبع الآن في غياهب السجون الباردة أناس يضحون بدنياهم وراحتهم، وآخرون يضحون بحياتهم من أجل قضايا لا ترضي الله، ودين الله أحق بأن تبذل في سبيله المهج إذا استوجب الأمر ذلك.

لقد كنت أخجل من أن أواجه الناس، ثم رأيت المائلات المميلات يؤدين رسالتهن

العفنة أمام الملأ بكل جرأة وثقة بالنفس، فأدركت أني بعيد، ولقد خشيت أن أموت، ثم رأيت الشيوعيين يتجمدون في صحراء سيبيريا في سبيل دعوتهم الهالكة المهلكة، وهم لا يرجون جنة ولا يخشون عذابا، فحسدتهم على ذلك، وخجلت من نفسي.

إننا نرى الكثيرين يفنون أعمارهم دفاعا عن حقوق أممهم المهضومة، رغم أنهم يرون النتائج مؤسفة، لكن يكفيهم أنهم عاشوا لحقهم ومبادئهم التي آمنوا بأنها الحق.

لقد خرّبت بلدان وأبيدت شعوب وشرّدت أخرى، من أجل مشاكل عرقية ومصالح وشهوات وزعامات وأطماع رخيصة، ودين الله خير ما يُتحمل في سبيله ذلك، وأجدر من تلك الأمور التي تحمّل أهلها في سبيلها الأهوال، وبذلوا فيها الغالي والنفيس، وإن لم يكن ذلك البذل والتضحية هدفا ذاتيا، والله لو لم يكن في دين الله إلا صلاح الدنيا –كما اعترف له بذلك أهل العقول- لكان جديرًا بالتضحية أكثر من تلك المذاهب كيف وفيه خير الدنيا والآخرة كله.

وإن المسلم -بحكم إسلامه- يستنكر أكبر المنكرات وأفظعها وهو الكفر ويبغضه، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(ما من نبي بعثه الله –تعالى- في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)** [رواه مسلم] وبذلك يبقى إيمان المسلم متجددا لا يعتريه البلى، كأنه دخل فيه اليوم.

لذلك يجب لله علينا ألا نلتزم الحياد على مرأى ومسمع منا، إذا كنا نرى الكفر بالله ثم لا نعيره اهتماما، وماذا نفعل بقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: **(لا ينبغي لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به، فإنه لا يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له)** [رواه الطبراني والبيهقي وأحمد والترمذي والحاكم وابن ماجه بنحوه].

إن من ولى دبره في دعوته كمن فر من الزحف أو أشد، حسبما ينجر عن تركه لها، وأن يحدّث نفسه بالدعوة واجب، كما يجب أن يحدث نفسه بالغزو أو أولى، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق)** [رواه مسلم]، وفي حالة الغزو قد يكون المسلمون كثيرين، بخلاف الدعوة في أحيان كثيرة.

ولا يجب استئذان والد ولا والدة في الدعوة إلى الله، وما تتطلبه من هجرة ونحوها، فنحن لسنا مخيرين في ذلك، وجواز ذلك للعاجز دليل على فرضيتها، فإذا كانت الدعوة لا تترك إلا ضعفا، فهذا دليل على وجوبها أصلا، كوجوب الجهاد العيني، ووجوبها على المسلم كوجوبها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله –عز وجل-: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** [يوسف: 108]، وإن خير ما يؤديه المسلم شكرا لله على نعمة الهداية هو دعوة الناس إلى دين الله.

فيا ترى هل سنكون في مستوى حمل هذه الأمانة ؟ الزمن القادم وحده كفيل بالإجابة عن هذا السؤال.

لابد للدعوة من حملة لا تنتظر أحدا كان مشغولا بدنياه حتى يتركها ويركب الدعوة ويتفرغ لها، فإننا إذا شغلنا بلقمة العيش سنؤجل الدعوة حتى ننساها، لا سيما مع التعقيدات الجارية في الحياة المعاصرة، ألسنا نقرأ: **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** [الحشر: 8].

وعن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **(إن الله يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك)**

[صحيح رواه أحمد والترمذي وابن ماجه].
ولم يكن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الأثرياء، حتى لا يقال هو من طلا ب الدنيا، والأغنياء يساء بهم الظن دوما، عن أنس أنه قال: **(ما أعلم النبي -صلى الله عليه سلم- رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ولا رأى شاة سميطا بعينه قط)** [رواه البخاري].
وعن عائشة أنها قالت: **(إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ما أوقدت في أبيات رسول الله –صلى الله عليه وسلم- نار)** فقال لها عروة: ما كان يعشيكم؟ قالت: **(الأسودان: التمر والماء)** [رواه البخاري].
ويصف عمر بن الخطاب حاله -صلى الله عليه وسلم- وقد دخل عليه يوما فيقول: **(وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرضا مصبورا وعند رأسه أهبا معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فبكيت، فقال: (ما يبكيك يا عمر؟) فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولك الآخرة؟)** [رواه البخاري ومسلم].
وكذلك إذا استغنى الإنسان جرى وراء المال ومشاغله وتركها، وكلاهما فتنة وابتلاء، ولذلك قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: **(بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنىً مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفنّدا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمرّ)** [رواه الترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه].

بكى قوم على جاهٍ ومالِ وأعوَل آخرون من الهزالِ
وبعضهمُ بكى في إثرِ خِلٍّ بعيدِ الأنسِ آذنَ بارتحال
وبعضهمُ ينوح على شبابٍ تولّى ثم بُدِّل باعتلال
ودين الله أصبح في ضياعٍ ولا باكٍ عليه ولا مبال

وفي الضفة الأخرى نجد المال ناصرا للدعوة إذا وقع في أيدي أهلها، عن عمرو بن العاص قال: **بعث إلي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: (خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني)، فأتيته وهو يتوضأ، فصعّد فيّ النظر ثم طأطأ فقال: (إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة)** قال: **قلت يا رسول الله: ما أسلمت لأجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح)** [أخرجه أحمد والترمذي والطبراني وأبو يعلى والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أبو عوانة وابن حبان، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح].
ولقد انتفع المسلمون بمال أبي بكر وعثمان وغيرهما أيما انتفاع، كما نفع مال خديجة محمدا –صلى الله عليه وسلم- في دعوته، فليس المطلوب –طبعا- أن ينسى المسلم دنياه ولا يبتغي من فضل الله، ولكن يتعين عليه أن يضع دنياه في خدمة دينه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.
إن قوى الجاهلية تعمل على قتل قلب المسلم، فإن لم يمت غرق في الحسرة، أو دخل في عالم التصوف، الذي تستعين به العلمانية لامتصاص الغضب وقوة الإسلام في التغيير، فيود المشركون لو يزهد المسلمون في المال والقوة عموما ويقنعون بالتعبد، الذي يربطونه بالخمول والإنقطاع عن الدنيا والهروب من الواقع، في استسلام لقوى الكفر التي تقود البشرية.
على كل حال يجب أن تقوم هذه الدعوة على قدميها، ويجب أن تواصل مسيرتها، سواء نمنا على السرير أو نمنا على التراب.

بين الإبتلاء والعذاب

إن تلقي الأذى والمصائب في طريق الدعوة إلى التوحيد ليس غضبا من الله، كما يخيل للمقصرين الذين تستهويهم العافية، ويتصورون أنها دليل على صحة الطريق ورضى الله عنهم، إن سنة الله في خلقه تقتضي أن محاولة تغيير المألوفات ينجر عنها متاعب، وتكبر المتاعب بقدر ما يكون التغيير جذريًا، ويتناسب الإبتلاء طرديا مع عمق الدعوة في مبادئها وخلافها لواقع الناس، بخلاف الأفكار السطحية.

ومن جهة أخرى فإن الإبتلاء مهما عظم خطبه ليس دليلا على صحة المنهج، بل هو دليل على مخالفته للواقع الذي ألفه الناس واعتادوا عليه.

والإبتلاء يكون بسبب الإنحراف والتقصير حينا، **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ** [آل عمران: 165]، كما يكون مع الصدق وصحة الطريق في أحيان كثيرة، ولم ينحرف الأنبياء أو يقصروا حتى يبتلوا، وعلى كل حال فإن الأذى ليس ذريعة للتفريط بل هو دافع للمثابرة، وإن لم يكن التعرض له مقصودا، فالمسلم لا يستهدف الإبتلاء، ولكن إن جاء لا بد أن يصبر عليه صبر الرجال.

يجب أن تمحى من أذهان المسلمين صورة المسلم المعافى في جسده وماله وهو مستلق في جو الربيع المشمس، إن الله يربينا على عزائم الأمور لا على سفاسفها.

حب السلامة يثني همّ صاحبـه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
قد هيأوك لأمر لو فطنت لـه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمـل

وإن من الناس من يرى أن هدفه من الحياة هو أكل الكعك، وما أرخصها من حياة، يعيش صاحبها صغيرا ويموت صغيرا.

فذاك الذي إن عاش لم ينتفع به وإن مـات لم تبك عليـه أقاربـه

أما رجال الخطوب فيسيرون إلى غايتهم ولو على حسك السعدان، غاية – كما يقال-: يشرب لها الذئب والشاة من منهل، ويجتمع لها العدو مع عدوه في منزل.

خلـق الله للخطـوب رجـالا ورجـالا للقصـعة والثريـد

إن ما سيأتينا من الخير كثير طيب، كما ورد في آيات وأحاديث تبشر بالخير في آخر الزمان، كما قال رسول الله –عليه الصلاة والسلام-: **(مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره)** [رواه الترمذي وحسنه والطبراني بنحوه، وورد من طرق عدة يرتقي بها إلى درجة الصحة].

وقد أصاب آباءنا الشدائد وهم كفار، وقد دمرت شعوب من أجل دنياها، فهذا عزاء لنا، يقول الله –سبحانه وتعالى-: **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ** [النساء: 104].

فإن الضر إن أصابنا نؤجر عليه وهو لهم عذاب، وقتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** [التوبة: 52]، **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** [الأنفال: 36].

ويقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: **(إن عِظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط)** [رواه الترمذي وابن ماجه].

هذه حكمة الله، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولقد كان بعض الناس من الأعراب و المنافقين يزعجون رسول الله ويحتمل، ويقول: **(رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)** [رواه البخاري ومسلم].

ويضعف بدنه حتى يكون قدوة لمن تبعه، سئلت عائشة: هل كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يصلي وهو قاعد؟ قالت: **(نعم، بعدما حطمه الناس)** [رواه مسلم].

وكان يؤذيه المشركون ويسخرون منه ويجرحون مشاعره، حتى أن بعض الفجرة ليبصق في وجهه، أوجوهنا أكرم لدينا من وجهه؟! أم نفوسنا أعز علينا من نفسه؟

إلا أن الله عصمه من القتل حتى بلغ رسالته، وقد تعرض لمحاولات اغتيال عديدة في مكة والمدينة، ولم يعصم أنبياء آخرين كثيرين، فقد نُشر بالمنشار زكريا، وذبح في المحراب السيد الحصور يحيى عليهما الصلاة والسلام، أما الأذى الآخر فقد ناله وصبر، وقد يرى ضعيف الإيمان أن في ذلك مذمة ، فيؤدي به ذلك إلى التراجع والسكوت كلية، لكن المسلم لا يحس بالمذلة والهوان إذا سخروا منه لدينه، بل يشعر أنه فوقهم في الدنيا والآخرة.

قال الله –تعالى-: **وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ** [ص: 63/62]، وقال: **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ** [هود: 38].

دون الحنيفة كلُّ دينٍ باطلٌ وعبيده أدنى من الأنعام

ففي الإسلام كبرياء على معبودات المشركين من عباد وأوثان، وتحرر منها، وتمرد عليها، حيث يرى المشركون في المسلم ذلك الإستعلاء على قيودهم فيحسدونه، **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ** [البقرة: 109].

بين الجهر والإسرار والتقية

إن طبيعة الدعوة تتنافى مع طبيعة الحرب، فمن أسس الحرب الخداع والكذب و المخاتلة والتضليل للعدو، وهذا أمر مشروع كما ورد في قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: **(الحرب خدعة)** [رواه البخاري ومسلم]، وإذا كان المقاتل يستتر ويختفي من العدو ويلبس الدرع الواقية، فالداعية رجل ظاهر للعيان، حاسر وكاشف عن دعوته.

ولذلك فسحب حالة الحرب –وحرب العصابات بالأخص– على الدعوة أمر خاطئ، فالدعوة إلى دين الله تقوم على الصراحة في البيان، **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ** [الكهف: 29]، **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** [الممتحنة: 4].

ولولا ذلك لكانت التقية في الدين وإظهار الكفر للكافرين حين الإضطرار أمرا مستحسنا، إذا كان لخداعهم، ولكن الله رغّبنا في إظهار الدين والعزيمة فيه والجهر بكلمة الله، وإن كان يترتب عليها الضرر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)** [رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه]، فما بالك إذا كان سلطانا كافرا جائرا؟

أما التقية فهي مجرد رخصة رحمة من الله بالضعفاء من المؤمنين، ولا تقوم الدعوة إلا على الصدق، فالصدق من خصائص الدعوة إلى الله، وهو مما تختص به دون دعوات

الضلال.

إنه لمن الواجب أن يبرز للدعوة رجال بالعدد الكافي الذي يحقق المطلوب ويسد الثغرة، وأي ثغرة! وإذا قصّر عامة المسلمين على قلتهم اليوم توجّب الأمر أكثر فأكثر، فيجب أن نرفع أصواتنا عاليا حتى تُسمع من لم يرد السماع، أما أن تلتزم الدعوة منهج السرية على طول الخط فإن أهلها يصبحون جماعة منزوية في الدهاليز عاجزة عن التغيير، الأمر الذي ينجر عنه زعزعة في مبادئها فتختنق وتصاب بالشلل.

وأما الذين يستجيبون لها فإنهم لا يكتسبون الإيمان القوي، لأنهم لا يتحركون به بين الناس، وبذلك يدخلون في الإسلام وقلوبهم قاسية كالحجارة، مما يجعلهم فريسة سهلة لوساوس الشيطان والمجتمع الكافر، وعرضة للردة بسهولة، وبقدر ما يرون من تضحية من جانب دعاتهم يكون حماسهم للدين وصلابتهم فيه، فالمدعو صورة من الداعية، فضلا عن أن الكثير من ضعاف القلوب لا يثبت إلا إذا وجد من يأخذ بيده، وإهماله يؤدي إلى ردته بمرور الوقت لعدم وجود القدوة.

وإذا أردنا أن نضع الأمور في نصابها نقول أن كل من يقتدى به ويُنظر إليه يجب أن يأتي ما هو أولى، فإذا أخذ بالعزيمة لا بد أن يكون في بعض الأتباع ضعف، فيأخذ من يأخذ منهم بالرخصة مستشعرين للتفريط، أما إذا أخذ هو بالرخصة فإنهم سينزلون إلى درجة الكفر.

ولو فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- كذلك الأعرابي الذي سأله عما عليه من فرائض فأخبره بالصلوات الخمس وبالزكاة وبصوم رمضان فقال: هل علي غيرها؟ فقال: **(لا، إلا أن تطوّع)** فلما أدبر الرجل قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(أفلح إن صدق، أو: دخل الجنة إن صدق)** [رواه البخاري ومسلم]، فهل سيكون في المسلمين من يقوم الليل عندها؟ بل إن التقصير سيطال الصلوات الخمس ذاتها، وإذا استكثر النبي أو أي داعية من مباحات الحياة الدنيا تورّط غيره في المحرمات.

إن صورة المعذّبين الثابتين من الصحابة في مكة كانت تزلزل قلوب عتاة قريش، وكانت سببا في أحيان كثيرة في إسلامهم، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم- يحرّض أصحابه على الثبات على دينهم والجهر به إذا رأى ذلك ممكنا، ولم ينههم عن الجهر بدينهم، ولم يحذرهم من ذلك أبدا، متذرعا بأخذ الحذر، وترك الإندفاع والحماس، ولم يكن يكتفي بإظهاره هو -صلى الله عليه وسلم- للدين، فكيف بنا نحن؟!

فثبات بلال على كلمة التوحيد وهو تحت سياط أمية بن خلف كان أنفع للدعوة من إعطاء عمار بن ياسر الكفار ما يريدون مكرها، والإسلام بحاجة إلى من يحمل روحه في كفه مبلغا لدين التوحيد، ولترمِه المنية بعدها حيث شاءت.

يقول الله –عز وجل-: **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** [العنكبوت: 2/3]، فقد قالوا: آمنا، جهرا لا سرا، قولا وعملا، ولو كان إيمانهم سرا لما فتنوا ولما ابتلوا، وتصوّر كم تكون شماتة الكفار بالمسلمين ودينهم، وكم يكون طغيانهم وتجبرهم إذا ألقى المسلمون بأيديهم ووافقوهم على طغيانهم مكرهين، وتخيل الأمر لو صارت الرخصة عادة من المسلمين وسنة.

ذكر إبراهيم التهامي في "جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة" نقلا عن "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" للدباغ عن ابن الهذيل وابن البردون لما استولى العبيديون الملاحدة على المغرب: **(فأرسل عبيد الله الشيعي من يأتيه بهما، فلما أدخلا عليه وجداه على سرير ملكه جالسا وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي وأبو العباس أخوه، فلما وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس: "نشهد أن هذا رسول الله"**

وأشارا إلى عبيد الله الشيعي، فرد عليهما ابن البردون وابن الهذيل بلفظ واحد: "والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: نشهد إنه رسول الله ما قلنا: إنه رسول الله" فأمر عبيد الله بعد ذلك بقتلهما، وأمر بربطهما إلى أذناب البغال، وقيل إن ابن البردون لما جُرّد للقتل قال له قاتله: أترجع عن مذهبك؟ فقال: أعن الإسلام تستتيبني؟!).

وقال نقلا عن "معالم الإيمان": (أن عبد الله المعروف بالمحتال صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا في دار ابن أبي زيد القيرواني، فقال لهم ابن التبان: أنا أمضي إليه أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم، وفعلا ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه، وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلهم أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم، ولكنه أبى وقال: "شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه، ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين ما فارقت مذهبي"، ولما خرج من عندهم بعد يأسهم منه تبعه أعوان الدولة الظالمة وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس على تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة ويقول لهم دون خوف ولا وجل: "تشبثوا ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام فإن فارقتموه هلكتم").

وقال أن الناس ارتاعوا من الشيعة (ولجأوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية فأبى وقال: "قد أربيت على التسعين، ومالي في العيش حاجة، ولا بد لي من المناظرة، أو أن أبلغ في ذلك عذرا" ففعل وصدق).

وعن علي بن شعيب الطوسي قال: (كان أحمد بن حنبل عندنا المثل الذي قال فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حتى أن المنشار ليوضع على مفرق رأسه ما يصرفه ذلك عن دينه)، ولولا أن أحمد بن حنبل قام بهذا الشأن لكان عارا علينا إلى يوم القيامة، إن قوما سُبكوا فلم يخرج منهم أحد).

وقال أبو إسماعيل الهروي: عُرضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي: إرجع عن مذهبك، لكن يقال لي: أسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت).

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فـلاح

يجب أن يصبر المسلمون بثباتهم على الدعوة وطولها، وأن يصبروا على إظهارها، لا أن يصبروا على ترك الدعوة أو تأجيلها بمبررات واهية، بادعاء أن ذلك من فقه الدعوة، فهذا إن سمي صبرا فهو معصية لله، وقد ينجر عنه التخلي عن الدين كلية، بسبب عدم مسايرة حتمية الدعوة التي هي طبيعة الدين.

ولا نقول أن ما فسد في قرون لا يصلح في أعوام، فمن الضالين المفسدين من يصلحه الله في ليلة، وموقف قصير، ومنهم من لا يتوب ولو حاولته الدهر، فإن من الأنبياء من واجهوا فسادا متراكما عبر العصور وأصلحوه في سنين معدودات، كموسى ويونس ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ومنهم من دعا طول حياته ولم يستجب له قومه كنوح وإبراهيم وغيرهما كثير صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

ولكن نقول أنه يجب الإلتزام بالدعوة على بصيرة من الله دون تبديل، حتى يفيء الناس إلى دين الله، سواء كان ذلك في أعوام أو في قرون، فالأمر أمر مبدأ لا سياسة الدعوة، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة.

كما يجب على المسلمين من جهة أخرى أن يكفوا أنفسهم عن الإنجرار خلف الإستفزازات ورد الفعل الإستعجالي الإرتجالي، حتى لا تدخل الدعوة في متاهات تعرضها للإبادة، وكف اليد جهاد للنفس وصقل لها وتربية لها واستسلام لأمر الله، وبين الغرور واليأس هناك أمر وسط، وبين التهور والجبن هناك أمر وسط، وقد قيل أن من التفت إلى

عوائق الدعوة عجز، ومن جذبته نشوة النصر اغتر، ومن استعجل الفرج أحمق، والكيّس من حاسب نفسه.

فهذا هو التهور والحماس المذموم، لا إظهار الدين وإبلاغه، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ [الأحزاب: 39].

يُرجع المؤرخون بطء انتشار ديانة أتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام- قبل وبعد أن تحرف إلى كون أهلها سلكوا طريقة التخفي والتستر في السراديب والفيافي هروبا من الدولة الرومانية لمدة ثلاثة قرون، أما أتباع محمد –عليه الصلاة والسلام- فاتبعوا طريقة المجاهرة والجهاد، فامتلكوا زمام المبادرة، وكونوا لأنفسهم دولة ذات سيادة في بضع عشرة سنة، واستولوا على بلاد فارس والروم بعد ربع قرن فقط من البعثة.

عن عائشة -رضي الله عنها– قالت: **(لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا ويأتينا فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- طرفي النهار بكرة وعشيا، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قِبل أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، قال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال: إن مثلك لا يَخرُج ولا يُخرَج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، وارتحل ابن الدغنة مع أبي بكر فطاف في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرَج مثله ولا يَخرُج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكلّ ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق، فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وقالوا له: مر أبا بكر يعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما يشاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فقال ذلك لأبي بكر، فلبث يعبد ربه ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، وبرز فيصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر لا يكاد يملك دمعه حين يقرأ، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك وابتنى مسجدا بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك جوارك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الإستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله)** [رواه البخاري والبيهقي].

لقد كان في وسع أبي بكر أن يأخذ بالرخص، ويبقى في حماية ابن الدغنة هذا، ولا يستعلن بالحق الذي يحمله متذرعا بحماية الدعوة، ولو فعل ذلك هو وغيره من الصحابة لعاشوا مسلمين، لكن الإسلام سيموت بموتهم، ولا ترفع له راية أبدا، وما كان ليصل إلينا أبدا بهذه السياسة المميتة، وللعلم فقد وصل الصحابة –لا أقول: أبناؤهم وتابعوهم فحسب– إلى المغرب وإلى حدود الصين وروسيا، والملاحظ عن هؤلاء الصحابة أنهم كانوا يدعون إلى الإسلام في أكثر الأحيان دون أمر من النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي سيرته –صلى الله عليه وسلم- عبر، فإنه لم يعطل دعوة الكفار حتى بين وقعتي أحد والخندق، فنجده يبعث البعثات لدعوة القبائل إلى الله، فبعث عشرة فقتلوا ثم سبعين فقتلوا، وهم من خيرة أصحابه رضوان الله عليهم ورحمته، إنها الإستماتة في الدعوة كالإستماتة في القتال، يقول الله –عز وجل-: وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا [الفرقان: 52] أي بالقرآن، قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا [هود: 32].

والإعتلال بحالة الخوف لترك الدعوة جهرا وسرا إعتلال لا دليل عليه، لأنه يؤدي إلى تركها كلية، فلا مناص من العداوة بسبب مخالفة الدعوة للجاهلية في العمق، لذلك فإن من ينتظر من الكفار انفتاحا سياسيا حتى يدعو إلى الله إنما هو بعيد كل البعد عن دعوة الأنبياء، وهل كان أكثر أنبياء الله يدعون إلا في جو من الرعب المخيم على المجتمع من طرف الحكام المتألهين؟ فإنهم قد يسمحون بمخالفة بعض دينهم، لكن في إطار المبادئ العامة المتفق عليها، أما أن تخالف مبدأ الديمقراطية نفسه والقانون الجاهلي نفسه فلا بد أنهم لن يفرحوا بك ولا بدعوتك.

وكما أن سرية الدعوة يفرضها الكفار وليست أصلا، فإن الإحتفاظ بعلنيتها مع موافقة الكفار في بعض أهوائهم ليس من الإسلام، فإن إصرار الناس على دينهم يستدعي تغيير الوسائل الشرعية دون مس بالمنهج والمبدأ، **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا** ، إلى أن قال: **ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** [نوح: 9/5]، فهي مرونة في الحركة والوسائل وصلابة في المبادئ.

وقد تكون الدعوة ظاهرة منتشرة ويستتر بها في أماكن معينة طلبا لهداية الناس، أي بانتقاء العناصر التي يعرف المسلم بحكم احتكاكه بالناس إمكانية استجابتها، أو عدم وقوفها في وجه الدعوة على الأقل، وقد يجهر قوم ويسر آخرون، وقد يسر نفس الشخص ويجهر حسب الظروف.

بين الأمل والتواكل

إن الإنسان يتحرك في حياته بين الأمل في تحقيق ما يريد والخوف من عدم تحقيقه، وبدون هذين العاملين النفسيين تتوقف حركة الإنسان، فلا يمكن للمسلم أن يدعو إلى الله إلا إذا قدر عظمة هذه الدعوة، واستشعر ثقلها، وأحس بالخوف عليها وعلى دينه، ومن هذا الحرص والإحتراس ينشأ الثبات.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: **(كان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من إذا أريد على شيء من دينه رأيت حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون)**.

وأمر آخر يصيب نفس المسلم إذا ما ضعف إيمانه وهو تقاعسه عن الدعوة إذا رأى من الكفار صلاحا وعدلا وخيرا، لكن إذا رأى طغيانا وفسقا وعنادا للدين تتجلى له حتمية الدعوة، إن هذا الخير والصلاح لا يزن عند الله جناح بعوضة ما داموا لا يحرزون أصل الدين.

عن ابن عباس قال: **(قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام و الهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، فأنزل الله:** **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ** [التوبة: 19] [أخرجه ابن أبي حاتم].

وإن النبي –صلى الله عليه وسلم- لم يكن يتواكل على المبشرات، كقول الله –تعالى-: **هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ]** [الصف: 9]، بل كان يتفاعل مع الأحداث، فتلك طبيعة الحياة، ولذلك كان يحزن ويشتد به الحزن لعدم استجابتهم، **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا]** [الكهف: 6].

ويدعو في بدر ويلح في الدعاء حتى يسقط الرداء عن كتفه: **(اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض)** [أخرجه مسلم وأحمد والترمذي والبيهقي وأبو داود وابن حبان والبزار]، مع أنه موقن من ظهور دينه، كذلك إن أردنا أن نعمل لهذا الدين.

وقديما قيل: الأمل بلا عمل من سجايا الضعفاء، وإن الذين يتواكلون على المبشرات يعجزون، وقد يعملون ضد دعوتهم دون أن يشعروا، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة عام الفتح، إذ ظن أن إفشاء سر المسلمين للمشركين لا يضرهم مادام الله ناصر رسوله لا محالة.

ولسان حال هؤلاء يقول: لقد كبرنا ووهنت عظامنا، في الوقت الذي يلزمهم أن يقولوا: بل الآن اشتدت سواعدنا، ولن نترك هذه الدنيا للكلاب يلِغون فيها ويعربدون، أيُهدم الإسلام ونحن قاعدون لا نحرك ساكنا؟!

إن الدعوة مأجور عليها صاحبها وإن لم يهتد الناس على يده، لكن الأجر مع هدايتهم أكثر، حتى يكون الإجتهاد والسعي الحثيث لاستجابة الناس، قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: **(لئن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم)** [رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد والبيهقي].

وهذا كالإجتهاد في الحكم وغيره، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: **(إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإذا اجتهد فأصاب فله أجران)** [رواه البخاري ومسلم وأحمد و النسائي وابن ماجه]، وكقوله -عليه الصلاة والسلام-: **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز)** [رواه مسلم].

ويرى الناس في المسلم ذلك الحرص على هدايتهم وتلهفه لاستجابتهم شفقة عليهم، دون مقابل مادي أو معنوي يسدونه إليه، إلا ابتغاء الأجر من الله، ويتلمسون إخلا

اصه لدعوته، قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ] [سبأ: 47].
وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لعمه: (قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة) قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله -تعالى-: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ] [القصص: 56] [أخرجه مسلم وأحمد وابن خزيمة والبيهقي والترمذي].
وعن ابن مسعود قال: (كأني أنظر إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: ربي اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) [رواه البخاري ومسلم]، وكل هذا يترك أثرا عميقا في نفوسهم.
يجب أن تتظافر الجهود في الدعوة إلى الله كأي عمل آخر، وقد كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول: (من يعينني على نشر لا إله إلا الله وله الجنة) [رواه البخاري]، وعن جابر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لبث بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في المواسم ومجنة وعكاظ يقول: (من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة) [أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وأخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه].
ويقول الله -تعالى-: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ] إلى أن قال: وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ] [يس: 20/13] وقال عن نبيه موسى: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ] [القصص: 34] فإذا احتاج الأنبياء إلى المساعدة فنحن أولى بأن نتعاون ونتخذ الأسباب ونطرق الأبواب.
لقد كان الصحابة يحرسون رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مع علمهم بأنه معصوم من القتل، لقول الله –تعالى-: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ] [المائدة: 67]، وقد لبس درعين يوم أحد.
ذكروا عن علي أنه قال: (ولقد كنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، وما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما، ومضيا على اللقم، وصبرا على مضض الألم، وجدا في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم لما قام للدين عمود، ولا اخضرّ للإيمان عود).
لقد أدرك هؤلاء أن الله لا ينصر دينه بدعوات تنطلق من أفواه القاعدين –غير أولي الضرر- القائلين: للكعبة رب يحميها، أو القائلين: دعوها فإنها مأمورة، على طريقة: إذهب أنت وربك فقاتلا، مثلما لا يرزقهم بدعواتهم فقط دون سعي منهم وحركة، فلم يكونوا سلبيين إلى هذه الدرجة.
إن التواكل والتهرب من المسؤولية وانتظار التمكين ونصر الدين من الله خُلق ذميم ورثته هذه الأجيال نتيجة عصور الإنحطاط الشامل، وهو يمثل تصورا صوفيا ضالا للدعوة، كترك السعي لتحصيل الرزق وانتظار الرزق من الله، فإن الله يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ] [محمد: 7]، وهب أن النصر أتى أليس ينقص صاحبه أجر العمل ويتحمل وزر التفريط؟

إن دين الله لا يمكّن له بقوم لم يفهموا هذه المعادلات، وإن من الخطأ الفادح أن نقول بأن الكفار لا يقدرون على تعطيل الدعوة أو القضاء عليها ولو إلى حين، احتجاجا بأن الله على كل شيء قدير، فهذا تنويم للمسلمين، وأعتقد أننا بحاجة إلى منبّهات لا إلى مهدّئات.

إن التمكين لدين الله ثمرة مجلوبة بعرق الجبين ودماء القلب، لا هدية مفاجئة، و التاريخ شاهد على ذلك، ومن جهل الأيام فليتعلم، ولماذا قص الله علينا صراع الأنبياء مع أقوامهم إذن؟! إنها دروس تطبيقية من التاريخ.

وإن الكفار لو تواكلوا على نزغات وليّهم الشيطان وكيده لهزموا، لأن الشيطان كما قال ربنا: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]** [النحل: 99]، ولكنهم يتخذون الأسباب ويجدّون في باطلهم، **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ]** [الأنفال: 36]، والمسلمون أولى باتخاذ الأسباب والقوة أمرا من الله.

حقا إن الكفار لا يستطيعون مغالبة ربهم بمكرهم، لأن مكر الله لهم بالمرصاد، **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ]** [الأنفال: 30]، لكن من الممكن جدا أن ينتصروا على المسلمين ويحققوا مبتغاهم، وينصر الله دينه بقوم آخرين متى شاء ذلك.

قال الحكماء: ما قام حق ولا باطل إلا بدعوة ولا ترك إلا بترك الدعوة، وإذا كان قول الباطل جريمة فالسكوت عن الحق جريمة أيضا، لأن السكوت عن الحق يؤدي إلى فشو الباطل، وكما أن البصر لا يكفي لرؤية الأشياء دون نور يسلط عليها، كذلك الناس لا يعرفون الدين دون دعوة وبيان.

وكما بقيت هذه الأمة في جاهلية، وكما بقيت دعوة التوحيد هامدة مكتومة كل هذه القرون يمكن أن تبقى كذلك لقرون أخرى، ما لم يكن هناك من يتحرك بها اليوم قبل الغد.

إن الله ينصر دينه بدفع الناس، **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ]** [الحج: 40].

هذه سنة الله في خلقه، ولن يستيقظ الناس يوما مؤمنين بدون أسباب، هذا لم نسمع به، وهو -عز وجل- قادر على ذلك وعلى أن يخلقهم على هدى، ولكن كما ضلوا بالشيطان وأتباعه يهتدون بالأنبياء وأتباعهم، يقول الله –تعالى-: **وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ]** [محمد: 4].

فيقيض لدينه رجالا يعملون له، وكما يرزق بعضهم من بعض يهدي بعضهم ببعض، يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: **(إن الله ليغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته)** [أخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان].

بين التنظير والواقع

وإني لأقول هذا ولا أخالني من أهلها، نسأل الله أن لا يجعلنا من الذين يقولون ما لا يفعلون، ولا الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، ونسأله -تبارك وتعالى- أن يثبتنا على دينه حتى نلقاه، ولكني أتحدث شعورا بالتبعة الملقاة على عاتقي كمسلم وإكبارا للمسؤولية أمام الله.

وكل هذا الكلام كلام، ومهما بلغت درجة عمقه وصدقه فإنه لا يغير مني ولا من سامعيه، قال حسن البنا: (**ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين، أن نؤمن بالفكرة إيمانا يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبال وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع نسي كلٌ إيمانه وغفل عن فكرته، فهو لا يفكر في العمل لها ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها، بل إنه قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر، أو لست تضحك عجبا حين ترى رجلا من رجال الفكر والعمل والثقافة في ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار ملحدا مع الملحدين وعابدا مع العابدين؟**).

في كتاب الله أدلة منطقية معقولة واجه بها الكفار، لكنها لا تؤثر فيهم لوحدها، إنما وجودها جاء ترشيدا لحركة دعوية ميدانية، وهذا ما يخشاه أئمة الكفر، وإن الكثير من الإ نحرافات لا يمكن تغييرها إلا بإيجاد واقع سليم، أنظر مثلا إلى استخفافهم بالدين واعتقادهم بأنه حكر على الضعفاء، هذه النظرة لا يمكن محوها إلا بالإعتزاز بالإسلام والإ ستعلاء به، وازدراء الباطل والتعالي عليه، ومنافسة أهله في كل مجالات القوة.

إن وجود المسلمين في الميدان داع قوي إلى الإستماع والإقتناع والإتباع، و التجربة أولى بتحصيل العلم والحكمة من المعرفة النظرية، وفي التجارب ما ليس في الكتب، أما الأدلة النظرية فيمكن أن تؤثر في الباحثين عن الحق ابتداء، فهؤلاء هم الذين يمكن أن يقتنعوا ويتبعوا، وهم قليلون بين جمهور المشركين، وقديما قيل: مقام رجل في ألف رجل خير من كلام ألف رجل لرجل.

ويكاد يكون أي إنسان داعية إلى هدى أو إلى ضلال بفعله أو قوله دون أن يشعر، وإن تخلى عن الدعوة إلى مبادئه فهو محل قدوة في الخمول والقعود والعجز، بما أن المجتمع يتأثر الناس فيه بعضهم ببعض.

أنظر كيف تعودت هذه الأجيال على العلمانية وكيف صارت حقيقة مسلما بها، ولقد كنت أستمع لكلام بعض الوزراء وأفكر كيف تغيرت هذه البلاد بين الأمس واليوم، وكيف صار الإسلام مجهولا، فإذا عُرف منه شيء فهو مطارد، فالواقع هو الذي يسيطر على قلوب الناس لا النظريات، فالناس لا يستطيعون الإنعتاق من الجاهلية العلمانية وإن

اقتنعوا، لأنها تضغط عليهم بواقعها، بل إن الواقع الجاهلي يؤثر حتى في الإقتناع فيمنعه ويحجب الحقائق ويغشي العقل.

إن العرب على ما فيهم من عزة وكبرياء قبلوا الخضوع للأوثان لأنها صارت أمرا عاديا لا ينتبهون له، وإن إلصاق صورة الحياة العائلية بذات الله -جل جلاله، كما يقول النصارى وغيرهم- لا يمكن أن نتخيل أن إنسانا يعتقد به مهما مسخ عقله، لولا أنه اعتقاد جزء كبير من البشرية، لأنه أصبح حقيقة واقعة يسلمون بها لانتشارها، ولا يفكر أحد في ا لأمر إلا صده هذا السؤال: أكل هؤلاء على خطأ؟ فيزيده ذلك فتنة.

ولو فكر لعَلم أن الذين يخالفونه هم مثل الذين وافقهم أو أكثر، لكن الكافر يحاول إقناع نفسه بالحماقة والغباء والسفه ويكرهها عليه، فكل التناقضات الصارخة التي هم عليها تصير عندهم بديهية ثم حجة.

وعندما يصير الشيء واقعا معاشا لا يكاد يحتاج لإقراره حتى إلى دليل فوق وجوده، سواء كان حقاً أو باطلا، ويُستر عيبه ويفرض نفسه، فيكتسب شرعيته عن طريق التقادم، كأن الباطل يصير حقا إذا اتفق الناس عليه حتى صار عادة، وكأن الحق يصير باطلا بمجرد فقدانه وهجره، فكثير من المحكم يصير عند الناس متشابها بتعطيله.

إنه من الواجب اتباع الحق لا لشيء إلا لأنه حق، لا لقوته وكثرة أتباعه إن كثروا، ففشو الأشياء لا يجعلها مشروعة، ولذلك فالإسلام سيبطل عادات الجاهلية الواقعة ويفرض مكانها أخرى إذا كان دعوة ميدانية، وليست هداية الله لعبده أن يريه الطريق فحسب، ولكن أن يوفقه لاتباعه بعد معرفته، وييسره له بالتغلب على العوائق النفسية وا لإجتماعية وغيرها.

إن المسلم بين المشركين يقدم الخير ويتلقى الشر الذي لا يتوقف في جذبه إليه بلين أو بعنف، فهو لا يعيش خارج إطار الزمان والمكان، وما لم يشغل نفسه بتقديم الخير رضيت بالشر الذي يتلقاه، فالطبيعة لا تقبل الفراغ.

وإن الذي يتفقه في دين الله ويتخذه ثقافة عامة أو خاصة لا تزيد عن اللسان و الذاكرة لن يفهم دين الله كما يفهمه من يجعل الإسلام قضيته، ولا يهتدي إلى علوم الشريعة إلا من عمل بها، أما القاعدون عن العمل فيعزب عنهم الكثير من حقائق الدين ومقاصده، فقصص الأنبياء لا تؤثر إلا فيمن يعيش حالتهم، أما القاعد عن الدعوة فلا شك أنها لا تؤثر فيه أدنى تأثير، والمعرفة النظرية لن تجعله يعمل في سبيل دينه.

إن البشرية لا تصل إلى الحق بالتجارب لأن الحق ليس قضية معرفة فقط، كما أن الباطل ليس قضية جهل بالحق بل هو شهوات وهوى، هذا إذا استثنينا الذين يبحثون عن الحق ويتجردون له، فلو نشرنا الأدلة لما آمن بها الكثير، لأنها تخاطب العقل فقط، والشر والطغيان مصدره القلب، والناس لا تنقصهم الحجج فقط حتى يؤمنوا، وإنما يحتاجون أيضا إلى من يدفعهم ويشجعهم على الإيمان، أما الأدلة فيمكن اعتبارها حجة عليهم إن رفضوا، وهي دليل لمن يبحثون مسبقا عن الحق، ولديهم استعداد لاتباعه مع أي كان.

فيجب أن نجلي محاسن الإسلام ومساوئ الجاهلية ونكشف عنها الحجب، ولا ننتظر أن تتفطن لها وترعوي عن غيها يوما ما، فالقضية قضية هوى، يجب أن يتقرر هذا في أذهاننا، لا قضية جهل فحسب.

وكذلك القول بأن الدعوة إلى الإسلام تكون على شكل موسوعة علمية محايدة دون التعرض للكفار بالإنكار والترغيب والترهيب، أمر مخالف لمنهج الكتاب والسنة، فلا بد من مخاطبة العاطفة مع العقل، كما هو ظاهر في نصوص كثيرة، وكما هو الحال في كل الدعوات، ولا بد للداعي أن يبرز الأخطاء التي يقع فيها المخالف فيدحضها، ويحرك مكامن الخير في قلبه حتى يلين لدين الله، ولا بد للحق من مصاولة الباطل بكل الوسائل.

إن من خصائص دين الله أنه يتعمد المواجهة ويستجلبها، أقصد مواجهة الحجة بـ

الحجة، لا مواجهة القوة المادية بمثلها، وإلا فإن الجاهلية تريد الراحة لا من يعكر عليها صفو حياتها، ولا يرتاح الحق ما دام الباطل موجودا، ومن عادة الجاهلية السكوت عما تخالف فيه الإسلام، لا مواجهته صراحة، وإنما تحاول أن تجعل مبادئ الإسلام هلامية لا معنى لها.

فمن مخاطبة الأنبياء للعقل قول إبراهيم –عليه الصلاة والسلام-: **يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا]** [مريم: 42].

ومن مخاطبة العاطفة قوله: **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا]** [مريم: 45].

ومن ترغيبهم قول نوح –صلى الله عليه وسلم-: **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا]** [نوح: 12/10].

ومن الترهيب قول مؤمن آل فرعون: **يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ]** [غافر: 30].

ومن الزجر والتغليظ قول إبراهيم لقومه: **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ]** [الأنبياء: 67].

ومن التصريح بالبغض والعداء علانية: **وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ]** [الممتحنة: 4].

وعن جابر قال: **(كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومساكم)** [رواه مسلم]، وقد يصل الأمر إلى التغيير باليد والقتال.

والنصوص في هذا ظاهرة للمتتبع لسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولهذا يجب أن نكون مستعدين لكل أساليب ووسائل الدعوة، إلا أن الناس يختلفون في الواقع بين الخطيب والكاتب والشاعر والمحارب والعاطفي والعقلاني.

ومهمتنا هي أن نكتشف هذه الطاقات والمواهب في أنفسنا، وأن نوظفها في مكانها ، كما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يفعل مع أصحابه.

الإبتلاء بالشر والخير

هناك من يبتليه الله بوجود الكتاب وهو يفهمه، وهناك من يبتليه الله بالآيات، و الكافر بها أشد عذابا، كالذين نزلت عليهم المائدة، **قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ]** [المائدة: 115]، وكقوله -تعالى-: **يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا]** [الأحزاب: 30].

وهناك من يبتليه الله بالشباب، وهو زمن التهور والطيش وسرعة التقلب وعدم الروية وعدم تقدير العواقب، فقد يبدل دينه، وقد يكون له جانب إيجابي لكونه لا يملك ارتباطات كثيرة تمنعه من الإسلام، ولذلك كان أكثر أتباع الأنبياء شبابا، **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ]** [يونس: 83]، **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى]** [الكهف: 13].

والكبير يثبت على الدين، وقد يكبر عليه أن يدخل فيه لارتباطاته الأسرية من الزوجة والذرية، وارتباطاته مع المجتمع، وإفراطه في توخي السلامة والحذر.

كما أن هناك شعوبا سريعة التغير في أجيال متقاربة وأخرى بخلافها، وهناك من يبتليهم الله بالبداوة حيث الغلظة والجهل وصعوبة العيش ، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: **(الإيمان هاهنا، وأشار بيده إلى اليمن، والقسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر)** [رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن منده].

لكن في البداوة الثبات على الوعد والصدق والمروءة وعدم النفاق وغيرها من الأخلاق التي توافق الدين، فالبدو أقرب إلى الخير من الحضر كما يقول ابن خلدون، وهم أقرب إلى الفطرة، والنفس تقرب إلى ما سبق إليها من خير أو شر، ويصعب عليها اكتساب ضده من خير أو شر، والبدو يحرزون الضروري من المعاش، فهم أقرب إلى الأخلاق من شجاعة وعزة، والحضر على العكس من ذلك، لأن الترف يؤدي إلى الفحش، ففيهم الغدر و النفاق والصفات الذميمة، لكنهم ألين قلوبا للحق من جانب آخر.

وأجيال الدعوة الأولى من المسلمين في صراعها مع الكفر تكون أكثر ثباتا، لأن النفس إذا أريد إكراهها على شيء تمسكت بخلافه حتى تـفتكه، لا سيما إن افتكته بعد تضحيات فإنها أشد تمسكا وتشبثا به، بخلاف زمن الرخاء فتلين وتتراخى، والإبتلاء بالسراء أشد من الضراء كما يقول العارفون.

ومن قصة ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش تتضح الصورة، فقد ثبت عبد الله في مكة زمن المحنة ولما فرجت عنه في الحبشة ووجد العافية ارتد، كمن يخرج من السجن وتفتح له أبواب الدنيا فيتخلى عن كل ما كان يؤمن به من المبادئ التي عانى في سبيلها، فهذا لم يبحث عن الدين بعد أن عرف أن دين قومه باطل قبل البعثة، بل جاءه الإ سلام وهو مستريح، أما ورقة صديقه فقد بحث، وعرف أن لهذا الدين ابتلاء واستعد له، ولذلك قال:

فإن يبقوا وأبق تكن أمور يضج الكافرون لها ضجيجا

ومن الإبتلاء أن يبتلى الرعيل الأول بالغربة والعذاب، ومَن بعدهم بالقتال، ومن بعدهم بالفتنة وتمزق الصفوف، ومن بعدهم بالترف المادي، ومن بعدهم بالترف العلمي، إلى غير ذلك، ليرى الله الصابرين عند الشبهات والشهوات، فهناك من يصبر على الشبهات وتفتنه الشهوات، وهناك من يصبر على الشهوات ويفتتن عند ورود الشبهات.

وإن ألد أعداء الدين ليسوا بالعوام الجهال، فهم أتباع لشهواتهم التي تقودهم، ولا يفلسفون كفرهم، وهم مقتنعون بكونهم مفرّطين، لكن العلماء الذين هم أسرى للشبهات يبنون كفرهم على قواعد راسخة في عقولهم، ويعادون من خالفها، وهناك عوائق أخرى تمنع الناس من الإسلام كاستحكام نوع من الذنوب.

إن كون الإنسان فردا من مجتمعه وهو مدني بطبعه يمنعه من الإسلام وإن اقتنع به، لأنه يريد أن يتغير المجتمع كله معه، وهذا مالا يتحقق له، ويكره أن يعود منزويا لا يؤثر في المجتمع، فيتأثر بذلك، وهذا ما لم يكلفه الله به، بل هو الذي كلف نفسه، وجعله مانعا من الإسلام، فيجب أن يدرك أنما هو مطالب بأن يحيى مسلما وإن بقي وحده، فإن تحكّم في نفسه حاول من بعد مع الناس.

وقد يكون من أهل الرأي والجاه في قومه، فيكره أن يمسي دون رأي، فيستوحش لوحدته وعزلته عنهم، ويخاف أن يبقى في نفر يسير متشردين، لا يغني عنهم ولا يغنون عنه، إذا رماهم الناس عن قوس واحدة، على حد قول القائل:

الرجل حافية وما لي مركب والكف صفر والطريق مخوف

يقول الله –عز وجل-: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35].

عقبة وميسرة

ولتكن تضحيتنا بحفاوة الإخوان ومحبة الأصدقاء بعض ما نحتسبه في سبيل الله، ولا يقوم مانعا لنا من دعوتهم، **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا]** [مريم: 96]، **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً]** [الممتحنة: 7].

وتواجه هذه الدعوة قوما يلبسون ثياب العقلاء يبكون على وحدة أمتهم وسلامتها من الخطر، روى ابن هشام في "السيرة" عن ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: **(إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم).**

فيتهمون المسلمين بإثارة الفتنة، **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ]** [غافر: 26]، وأن دينهم يفرق بين المرء وزوجه والإبن وأبيه والأخ وأخيه.

والفتنة الحقة هي ما هم عليه من الكفر والعصيان، قال الله –سبحانه-: **وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ]** [البقرة: 217].

وقد تتأثر الحضارة ويخرب العمران ويهلك الحرث والنسل في الصراع بين الإسلام والكفر، سواء كان صراعا سلميا أو حربيا، وهذا لم يكن قط غاية المسلمين، بل لأن أعداء الدين يسعون بكل ما أوتوا من قوة لإخماد نور الله، فهم مستعدون للتضحية بنصف دنياهم ليعيش النصف الآخر بعيدا عن دين الله، وكل الخسائر والمعاناة التي تنجر عن دعوة الإسلام لا تقارن بما تعانيه البشرية يوميا.

وكل ذلك يثير أقاويل الكفار وشماتتهم، لكن لا مناص من تبليغ رسالة الله إلى العالمين، فتلك الحضارة ليست أصلا وغاية ومنتهى السؤل، ولكنها مجرد وسيلة، كما أن المال وسيلة، وليس غاية الغايات، فهي إن لم تكن وسيلة للإسلام كانت وسيلة للكفر، وفي ذلك ابتلاء من الله لعباده.

ثم إنهم يعانون من البلايا الجسام جراء تركهم دين الله، فأرض الله تتحول مع مرور الأيام إلى ماخور كبير ومرتع للمفسدين، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124]، لكنهم لا يتفطنون لذلك، لأن الشهوات تعمي القلب وتغطي العقل.

وقد ترى طائفة من الناس أن في هذه الدعوة تغريرا بأتباعها وقذفا بهم في المهالك ، بمفارقة الناس لهم والإنزواء لخطورة ما يذهبون إليه، لكنها عوائق وعراقيل تضعها التصورات الجاهلية أمامنا، تسمو عليها حتمية الدعوة وتذللها، ويجب أن لا تقف في وجهها، بل تحطمها وتمضي، قال الله –عز وجل-: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 49].

ولو نظرنا إلى ما سيتكبد أهلنا وأصحابنا من مشاق ومن ذهاب الدنيا لما قام للدين عمود، ألم يصب بني هاشم -مؤمنهم وكافرهم– جراء دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم - ما أصابهم؟ ولقد استثقلوا ما يقوم به رسول الله وما يكلفهم من المشقة، وأحس بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لكن لا بد مما ليس منه بد.

وقد يصل الأمر بالمسلم إلى تصور نهاية بعيدة للنفق، وأن المستقبل مظلم أمامه، وهو وضع عرفته دعوات الأنبياء كلهم في الحقيقة، وسلاح المسلم في مواجهة مكر الجاهلية وكيدها هو إيمانه، إنه السلاح الذي تعجز أجهزة الإستخبارات عن دحره، ولا تستطيع مراكز الدراسات أن تختلق الشبهات وتحرف الأهداف وتلبس الحق بالباطل أمامه، يقول الله –عز وجل-: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120].

إن حالنا ليس أسوأ من حال كثير من الأنبياء بين أقوامهم، فكيف كان حال يوسف وهو في مصر وحيدا، وحال إبراهيم ولوط وكلهم شباب؟!

إن كون المجتمع الجاهلي هو الأرض التي ينبت فيها المجتمع المسلم يجعل من ذلك رادعا لقوى الشر أن تقتل الدعوة، لأنها تقتل أبناءها الذين أسلموا، ووسط هذه المساحة الحساسة تستمر الدعوة.

وإن وجود منفعة من الدعوة لصالح بعض المشركين على حساب آخرين، يجعل الله منهم مناصرين لها أو ساكتين على الأقل، كما يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: **(إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)** [رواه البخاري ومسلم].

وهذا دون أن تتنازل الدعوة لصالحهم عن بعض مبادئها، ودون أن تداهن أي طرف، أو تكون لعبة في يده.

فالدعوة في الوسط الجاهلي غير شرعية بمقاييس الجاهلية، لأنها هي أيضا ترفض شرعية الجاهلية، ولذلك فمن مصلحة الدعوة أن تجد من يدافع عنها من ذلك الوسط، وإن كان هدفه غير إرضاء الله، فجو الحرية يساعد الدعوة في الحركة، إذ لا يلقى لها بال ويغفل عنها، وكما حُميت من طرف بني هاشم وكما ربى فرعون موسى كذلك تغفل عنها الديمقراطية، وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه.

ولو أسلم أبو طالب لما استطاع حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت قريش تحترمه لأنه على دينها، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- حرص على إسلامه، ودعاه حتى وهو يحتضر لينجو من النار.

ولا يصح أن نترك دعوة الروم واليهود لما قال النبي –صلى الله عليه وسلم- أننا سنقاتلهم في آخر الزمان، وقد دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- كسرى إلى الإسلام مع أنه قال من قبل أن كنوزه سيقسمها المسلمون غنائم.

فلا فرق بين دعوة العجوز والشيخ والضعيف ودعوة الكبراء من الناس، ولذلك عاتب الله نبيه لما مال إلى دعوة سادة قريش وترك الأعمى الذي جاءه طالبا الهدى.

وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتألف قلوب عظماء القبائل ويطمئن الملوك على ملكهم إن أسلموا، لأن في إسلامهم إسلام خلق كثير، فالحكام هم الأكثر تأثيرا في مسيرة التاريخ ومجرى الأحداث لأنهم يصنعون توجها عاما، غير أنه لم يركز عليهم ويهمل العوام والضعفاء.

وفي هذه المساحة الضيقة تستمر الدعوة، إلى أن يضيق الخناق على هذه الجاهلية الضاربة أطنابها في ربوع الأرض، والمعربدة في عرصات الدنيا كلما غاب دين الله عن الصراع، وإن الأمل في كتاب الله الذي أبقاه الله لنا نورا.

فإن ندرك وعد الله فله الحمد، وإن لم ندركه فلم يدركه أنبياء كثيرون وهم خير منا عند الله، ولكن نعذر عند الله بإبلاغ عباده، **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ]** [الأعراف: 164]، **فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ۖ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ]** [التوبة: 129].

إن المسلمين يحملون –بحق- أشرف دعوة خرجت لبني الإنسان، **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ]** [آل عمران: 110]، **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ۖ مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ]** [فصلت: 33].

فلا أجمل ولا أعظم من أن نعيش بهذا الدين، وهو معنى إسلامنا طبعا، وأجمل من ذلك وأعظم أن نعيش به ونعيش له.

فهرس